عنترة فى سجل التاريخ

obeikandl.com

من هو عنترة ؟

لقد شهد تاريخ العرب أروع صور الفروسية ، وأصدق مُثُل العزة والشجاعة والكرامة ، وأخلد ملاحم البطولة والتضحية والشهامة ، سواء كان ذلك فى عهود جاهلية العرب أم بعد بزوغ فجر الإسلام .

وعنترة الذى نتحدث عنه – فى هذا الكتاب – مثلٌ صادق من أمثلة الفتوة العربية فى عهد ما قبل الإسلام ، وعلم شامخ من أعلام القوة والنضال والجلد عند استعار وطيس الوغى واشتعال نار القتال .

قرْم عارم وبطل قاحم ، تنفست عنه أرباض نجد ، فإذا لاسمه فى العرب دوىّ دونه هزيم الرعد ، وإذا لذكره طنين يغمر كل الآذان ، ويصيخ له سمع الزمان !

هل حمى الذمار ، وصان حوزة الديار مثل عنترة الفلحاء[1] ؟

وهل صابر الهيجاء والقيظ جمرة ، وصاول القساورة الأشاوس مثل عنترة الفوارس ؟

وهل ورد المعامع ، وعف عن المغانم والمنافع مثل أبى المغلس[2] ؟

وهل أدار رحى الوغى ، وشن الغارات ، وارتخص فى سبيل مجده النفس مثل فتى عبس ؟

وهل صدح بشعر العرب الحماسى فكان به صناجة الزمان مثل عنترة الهيجاء ؟

لقد كانت حياة أسد البيداء ، وقاهر الصحراء ، سلسلة انتصارات رائعة سطرت أمجاده فى التاريخ ، بحروف متألقة ، وجعلته أسطورة من الأساطير تتحدث عنها الأجيال وتفاخر بها القرون ! .

وإنه ليكفى عنترة فخرًا وشرفاً ما حكى من أن أحمد بن عبد العزيز الجوهرى قال : حدثنا عمر بن شبة قال ، حدثنا ابن عائشة قال ، أنشد النبى صلى الله عليه وسلم قول عنترة :

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظلّه حتّى أنالَ به كَريم المأْكَل

فقال : ما وصف لى أعرابىٌ قط فأحببت أن أراه إلا عنترة[3] .

---

(١) لقب لعنترة لقب به لتشقق فى شفته .

(٢) كنية لعنترة وله كنيتان أيضاً هما أبو المعايش وأبو أوفى ، ذكر أولاهما المستشرق أرنولد Arnold والأخرى المستشرق منيل Menil .

(٣) مقدمة الديوان ، أبو الفرج الأصبهانى / الأغانى حـ ٨ ص ٢٤٣ ط دار الكتب ، الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية جـ ١ ص ٧٩٧ ، الألوسى / بلوغ الأرب ص ١١٧ ط . الرحمانية ، أسامة بن شاكر / لباب الآداب تحقيق أحمد شاكر ص ٢١٧ ، ناصر الدين الأسد / مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ص ٢١٣ ، نشر دار المعارف عام ١٩٥٦ .

كما أنه لا مراء مُطلقاً فى أن عنترة كان أشهر فرسان العرب فى الجاهلية[١] . وأبعدهم صيتاً وأسيرهم ذكراً ، كما كان من أحسن العرب شيمة ، ومن أعزهم نفسا[٢] وأجودهم بما ملكت يده[٣] وأوفاهم بالعهد ، وأنجزهم للوعد !

نشأته وبيئته وعشيرته :

نشأ عنترة نشأة العربى الأبيِّ فى صحراء نجد ، بعيداً عن ترف المدينة وصخب الحضارة ، كما ينشَّأ سائر قومه « بنى عبس » . وقد أكسبته بيئته الصحراوية بساطتها وصراحتها ، وعجمت عوده على الصبر والجلد وشدة البأس وقوة المراس . تلك بيئته لها طبيعة الصحراء وسحرها وامتدادها ، ولها قيظها وقرها ، كما أن لها كنفها الموطأ . فالصحراء إلى جانب صلابتها وعنفها ووعورتها لها رقة أنسامها اللطاف وإشراقها وبشرها . إنها دنيا تسبح فيها أخيلة الشعراء ، وتلتقى أفكارهم فى مسارحها صافية أنيقة ، لأنها عالم صيغ من الصفاء والنقاء ، وخلص من التعقيد والتكلف ، عالم بكر تستحم فيه الأنجم الزهر ، وتنعكس عليه أشعة القمر وديعة حلوة تبادله الأمنيات ، فإذا صافحته الشمس بحرارتها ويقظتها التمعت ذواته ، وتألقت جنباته ، وحلا المقام به فى مخيم جميل ... وساكنو الصحراء قوم خلصوا لحياة حرة باسمة لا تعرف من أوضار المدينة شيئاً ، فهم بساطتهم وبعدهم عن التكلف والتظرف ، صرحاء بالطبيعة ، طلقاء بالفطرة ، ذوو نجدة وكرامة ، وذوو عزة وأنفة ، يحمون الجار ويحفظون الذمار ، وإذا دارت الحرب هتفوا لها : البدار البدار[٤] .

ولم تخل نشأة عنترة من العقد النفسية ، فقد نَجَله أبٌ من أشراف القوم وأعلاهم نسباً ، ولكن هجنته جاءته من ناحية أمِّه الأمة ، ولم يكن ٱبن الأمة بالذى يلحق بنسب أبيه إن لم يبرِّز تبريزاً واضحاً فى نواح من حياته ، تشهد بعظمة شخصيته وأحقيته للشرف الرفيع ، وإلا ظل عبداً لا فرق بينه وبين باقى العبيد الذين يقتنون بالمال[٥] .

---

(١) كارل بروكلمان / تايخ الأدب العربى ، ترجمة عبد الحليم النجار ح ١ ص ١١ نشر دار المعارف .

(٢) الزركلى / الأعلام حـ ٢ ص ٧٤٤ .

(٣) ابن قتيبة / الشعر والشعراء ح ١ ص ١٧٢ ، فؤاد أفرام البستانى / عنترة بن شداد ، وأحمد الاسكندرى ومصطفى العنانى / الوسيط فى الأدب العربى راجع ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٤) الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية حـ ١ ص ٧٩٤ ، وأبو الفرج الأصبهانى / الأغانى / حـ ٨ ص ٢٣٧ ، وأشاد =

اسم عنترة :

بعض من الناس يسمون « عنترة » عنتراً وربما أغراهم بذلك قوله :

ولقد شَفى نفسى وأبرأ سُقْمها قيل الفَوارس ويك عنتر أقدم !

وقوله :

يدعون عَنتر والرِّماح كأنَّها أشطانُ بئرٍ فى لَبانِ الأدْهَم

وقد شرح التبريزى هذا البيت بقوله : « ويروى عنتر - أى بالضم - فمن رواه بفتح الراء فإنه رخم عنترة وترك ما قبل المحذوف على حاله مفتوحاً ، ومن روى عنتر وضم الراء أحتمل الوجهين : أحدهما أن يكون قد جعل ما بقى اسماً على حاله ، إلا أنه قد صار طرفاً كحرف الإعراب ، والثانى : ما رواه المبرد عن بعضهم أنه كان يسمى عنتراً ، فعلى هذا الوجه لا يجوز إلا الضم ، هكذا ذكره النحاس ، ويجوز أن يكون عنتر على هذا الوجه منصوباً بيدعون[1] . ويذكر شارح القاموس أنه « قد يكون اسمه عنتراً كما ذهب إليه سيبويه » ؛ ولماذا منع من الصرف أى التنوين ؟ على أن المتواتر فى الكتب المعتمدة وما عليه الكثيرون هو أن اسمه « عنترة » لا « عنتر » والعنترة السلوك فى الشدائد والشجاعة فى الحرب وهذا أقرب إلى مسمى بطل عبس .

وباسم عنتر سمى آخرون ، فهناك شاعر جاهلى هو الخنَوت توبة بن مضرس بن عبيد الشاعر ، يقول فى صاحب له اسمه عنتر وآخر اسمه مرداس :

سأبكى خليلى عنتراً بعد هَجْعة وسيفى مرداساً قتيل قنان[2]

قتيلان لا تَبكى اللِّقاح عليهما إذا شربت من قرمل وأفان[3]

وهناك عنتر التميمى جد أبى الفضل عبد الملك بن سعيد بن تميم بن أحمد بن عنتر شيخ ابن عساكر .

= ابن عبد ربه فى العقد الفريد ، أن من فرسان العرب فى الجاهلين عنترة بن شداد ، وعتبة بن الحارث بن شهاب ، وأبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، وزيد الخيل ، وبسطام بن قيس ، والأخيمر السعدى ، وعامر بن الطفيل ، وعمرو بن عبد وعمر بن معد يكرب (راجع العقد الفريد ص ٨٣ ح ١ تحقيق الزيادة) .

(١)التبريزى / شرح القصائد العشر ص ٢١٥ ، ط إدارة الطباعة المنيرية .

(٢) قنان جبل لبنى أسد لا يزال معروفاً بهذا الأسم فى غرب بلدة « الرس » فيما بينها وبين المدينة وهو إلى « الرس أقرب .

(٣) القرمل شجرة ذات سويقة لا تستر والأفان غبراء من العشب .

وسمى باسم عنترة كذلك : عنترة بن عروس الثقفى وكان مولَّدا ، وعنترة بن عكبرة الطائى[١] ، والمتواتر وروده هو بلا شك أقرب إلى الصحيح ، فهو إذن عنترة .

نسب عنترة :

وعنترة هو ابن عمرو بن شداد وإن غلب اسم جده على اسم أبيه[٢] ، وقيل : شداد عمه ابن معاوية بن قراد بن مخزوم بن ربيعة ، وقيل : مخزوم بن عوف بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن الريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر[٣] ، وأما ألقابه وكناه فكثيرة ، وقد سبق ذكرها ، وأم عنترة هى زبيبة الحبشية ، وله منها إخوة عبيد من غير أبيه[٤] .

مدارج صباه ومطالع شبابه :

ولد عنترة فى الربع الأول من القرن السادس الميلادى[٥] . وقد ذاق عنترة ، مثل أترابه ورصفائه فى صباه ممن لم يستحلفهم آباؤهم بأنسابهم ، مرارة الحرمان وقسوة العيش ومهانة الدار ، فقد كان أبوه هو سيده يعاقبه أشد عقاب على ما يقترفه من هنات هينات ، وكانت سمية زوج أبيه لا يلذ لها شىء كما يلذ لها أن تدس له عند أبيه ، وتحوك له من المكائد ما يجعله عرضة لصارم العقاب ، ويوقع به أعنف العذاب ، ومن ذلك أنها حرشت عليه والده مرة وقالت له : إن عنترة يراودنى عن نفسى ، وما كان أشنعها سبة ، غضب لها أبوه غضباً شديداً وعصفت برأسه حميته ، فألصقه الثرى وضربه ضرباً مبرحاً بالعصا ، وأتبعها السيف ، ولكن سمية أدركتها الرحمة آخر الأمر فارتمت عليه باكية تمنعه ضربات أبيه ، وتذود عنه حر وذباب السيف ، فرقّ لذلك أبوه وكفَّ عنه ، ولعله أدرك أن تلك إحدى مكائدها للفتى ، ولكن هذه الحادثة أنطقت عنترة شعراً معبراً يصور فيه مأساة صباه حيث قال :

أمِنْ سمية دَمْع العينِ مذْرُوف لو انَّ ذا منك قبل اليوم معروف

---

(١) الآمدى المؤتلف والمختلف ص ١٥١ و ١٥٣ « وشرح القاموس » : (عتر) .

(٢) مخطوط « مختصر جمهرة النسب » ص ١٢٩ وحاشيته نسخة الإدارة الثقافية معهد المخطوطات ؛ « بلوغ الأرب » جـ ١ ص ١٢٦ ، « الأعلام » جـ ٢ ص ٧٤٤ ؛ « خزانة الأدب » جـ١ ص ٦٢ ؛ « تاريخ الأدب العربى » للزيات ص ٤٨ ، وراجع « المحبر » لمحمد بن حبيب ص ٣٠٧ و « الأغانى » جـ ٨ ص ٢٣٩ ؛ و « الشعر والشعراء » جـ ١ ص ٢٠٤ .

(٣) أبو الفرج الأصبهانى / الأغانى جـ ٨ ص ٢٣٧ ، الآمدى / المؤتلف والمختلف ص ١٥١ م القدسى ، ابن حزم / جمهورة أنساب العرب ص ٢٣٩ نشر دار المعارف .

(٤) عبد القادر البغدادى / خزانة الأدب ص ٦٢ .

(٥)فيليب حتى / تايخ العرب (مطول) ص ١٢١ .

نجلّلتنىَ إذ أهوى العصا قبلى كأنّها صنمٌ يعتاد معكوفُ
العبدُ عبدكم والمالُ مالكم فهلْ عَذابك عنّى اليومَ مصروفُ
تَنْسى بلائى إذا ما غارةٌ لحقَت تخرُّ منها الطوالات السَّراعيفُ
يخرجْنَ مِنها وقَدْ بلت رحائلُها الماء تركُفها الشمّ الغطاريفُ
قَد أطعنُ الطعنةَ النَّجلاء عَنْ عرض تصفر كفّ أخِيها وهو منْزُوف[1]

وهو شعر فيه استعطاف ، وفيه اعتزاز بمشاركته فى حرب أبيه ، وتذكير بمواقفه منه ، وتفانيه فى خدمته واستماتته فى نصرته .

على أنه لم يمر طويل وقت حتى وجد أبوه نفسه مضطراً إلى الاعتراف بعنترة ، وإلى الفخر بتصحيح نسبه إليه ، وذلك أن قبيلة طيئ أغارت على بنى عبس ترد ثأراً لها عندها ، إذ سبق لعبس أن غزتها واستاقت إبلها ، وكان عنترة مع قومه فى حَومة النزال ، ولكنه اشترك مُدافعاً لا مُهاجماً ، وقيل : إن سبب ذلك أنه ساهم من قبل فى غزو طيئ ، ولكنهم بخسوه حقه فى الغنيمة ، إذ فرضوا له نصيب العبد منها وهو النصف فأباه ، ومن ثم تقاعس عن خوض المعركة ، واشتد الخطب على عبس حتى كادت أن تسلب خيراتها وتدور عليها الدوائر ، وحينئذ هتف بعنترة أبوه أن كرّ يا عنترة ، ولكن عنترة الذى أوهت نفسه العبودية ، وأذلها الرق ، والذى شوى قلبه ما كان يصيبه من تعيير وما يناله من هوان : إجابه دون مبالاة : العبد لايحسن الكرَّ إنما يحسن الحلاب والصَّر ... وحينئذ لم يجد أبوه بدا من أن يعطيه اعتباره ، ويلهمه الثقة بنفسه فصرخ فيه فيه : كرّ وأنت حرّ ، فكر عنترة يملؤه الزهو والفخار منشداً :

أنا الهجين عنترة كل امرئ يحمى حره
أسوده وأحمره والشعرات المشعره
الواردات مشفره[2]

وقاتل عنترة كما يقاتل الأبطال الذين يحمون عرينهم ، ويذودون عن حماهم أن يداس أو تطأه أرجل الأعداء ، وكانت الغلبة لفتى عبس الذى سرعان ما أحتفلت القبيلة به ، وكرَّمت فيه فارسها المُعلَم ، وسبلها بل ليثها المناضل [3] .

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى / الأغانى حـ ٨ ص ٢٣٨ ، الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية حـ ١ ص ٧٩٤ ، الديوان ص ١٠٩ .

(٢) الواردات : الطويلة ، أبو القاسم الزمخشرى / أساس البلاغة مادة ورد ص ٢٨١ ، ابن قتيبة / الشعر والشعراء ، راجع ح ١ ص ٢٠٥ .

(٣) أبو الفرج الأصفهانى / الأغانى حـ ٨ ص ٢٣٩ ، الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية حـ ١ ص ٧٩٥ .

وكان عنترة ، بعد ذلك ، إذا مُستْ كبرياؤه ، أو جُرحت مشاعره من ناحية أمه ، رد على ذلك بأنه إن تكن أمه جارية من الإماء ، فإن أفعاله وشمائله وشجاعته كل أولئك يعوِّض ما نقصه من جهة النسب ، ولاسيما أن أباه من خير عبس حسباً ونسباً ، وفى ذلك يقول :

إنى أمرؤٌ من خير عبس منصباً شطرى وأحمى سائرى بالمنصل
وإذا الكتيبةُ أحْجَمت وتلاحَظَت أُلفيت خيراً من معمّ مخول

فهو يفخر بجلائل عمله ، وباهر خلاله وصدقه منازلة الأعداء إذا ثار النقع ، وانعقد غبار المعارك ، إذ هو فى المعمعة بإقدامه ، وجراءة جنانه خير من المنسَّب ذى الخؤولة والعمومة[1] .

حياتــه :

ماذا عسى أن تكون حياة عنترة ؟ شاب مفتول العضل ، قوى الساعد رد له اعتباره ، فانتسب إلى بيت من خير بيوت عبس وأعلاها ، ونبغ فى قبيلة بارزة عظيمة الخطر من قبائل العرب هى قبيلة « عبس » ، وتلمسه قومه فإذا هو أشجعهم قلباً ، وأقوى فرسانهم بطشاً ، وأكثرهم بصراً بفنون الحرب والقتال . وعبس قبيلة تحب الغزو وتتعشقه كمثيلاتها من قبائل العرب ، فسرعان ما دوّى ذكر فارسها فى الآفاق ، وتناقلته الأفواه ، وتحدثت عنه الركبان ، فإذا بعنترة البطل الموهوب ترتعد لذكره الفرائص ، وتحسب له القبائل ألف حساب . كان يكرّ كرَّة الليث الهصور ، لا تقف أمامه عقبة أو تحول دون طريدته حائلة ، وكانت له فراسة تصيب ولا تخطئ . وكأنما ألهم نفسيات الرجال ، وعرف كيف يتوغل أسرارها ، ويكْتَنه دخائلها ، ويصل إلى مواطن القوة والضعف فيها ، إنه يجول فى المعركة ويصول ، فإذا أبصر الجبان حائراً يترقب نهد إليه معجلا وعاجله بالضربة القاصمة أو الطعنة الهائلة ، فإذا هو لقَىَ يتشحط فى دمه صريعاً كالشاة ، ويبصره الشجاع فتهتز نفسه لمنظره – وهذا شعور طبيعى فى النفس – وحينئذ يكون عنترة له بالمرصاد ، فلا يمهله حتى يسترد رباطه جأشه ، بل يلحقه بالجبان ليزاوج بينهما ، ويخلد له ذكراً تنخلع له القلوب ، وتتطامن له النفوس ، وتخفق له الأفئدة .

وكان يتجنب المزالق فلا يلقى بنفسه إلى التهلكة ، فهو يقدم إذا رأى الإقدام عزماً ، ويحجم إذا رأى الإحجام حزماً ، ولا يدخل إلا موضعاً يرى له منه مخرجاً ومنفذاً[2] ، ولاشك أن ذلك

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى / الأغانى جـ ٨ ص ٢٤٠ ، أسامه بن منقذ لباب الآداب تحقيق أحمد شاكر ص ٢١٧ ، ٢١٨ .
(٢) أبو الفرج الأصفهانى الأغانى جـ ٨ ص ٣٤٤ الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية جـ ١ ص ٧٩٨ .

من أقوى الأسباب التى جعلت من عنترة أشهر فرسان العرب المحنكين فى زمانه . فالحذر ووزن الأمور مما يعين على الانتصار ، ويرد عوادى الهزيمة والانكسار ، ولا أدل على ذلك مما فعله خالد بن الوليد سيف الله المسلول ، وهو الذى لم تهزم له راية قط . وذلك فى غزوة مؤتة حيث جعل الرسول صلى الله عليه وسلم إمرة الجيش لزيد بن حارثة ، فإن قتل فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة . وكان جيش الكفار يربو على مائة ألف ، أما جيش المسلمين فكان ثلاثة آلاف ، وأنَّى لهذا العدد الضئيل أن يثبت لعدوه الكثير العدد والعُدَّة ، وكان مالابد منه ، فقد التحم الجيشان ، فإذا أمراء جيش المسلمين وهم طليعة المجاهدين فى سبيل الله يصابون مستشهدين الواحد تلو الآخر ، ورأى خالد هول الموقف فكان أن تسلّم الراية ، وصار يرجع إلى الوراء رجوع القائد الخبير حتى انحاز إلى مؤتة ، ومكث يناوش الأعداء سبعة أيام انقطع بها القتال حيث ظن العدو أن المسلمين تتوالى عليهم الإمدادات ؛ وقد كان ذلك بالطبع عملا باهراً من أعمال خالد القائد الفذّ ، إذ أنه لو استبسل مقدماً ومن معه لعرضوا أنفسهم لموت محقق ، وللاستشهاد عن آخرهم . فليس عدوهم بالذى يستهان بخطره ، وجاء نعى الرسول عليه السلام لقواد هذا الجيش ، خير مصداق لما كسبه خالد من نصر مؤزر فى تراجعه بجند الله من إطباق العدو عليهم حيث قال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها ، جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وكانت عيناه تذرفان ثم قال : حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » .

فاعتدَّ ذلك نصراً وكسباً للمسلمين ، وفتحاً من الله عليهم سببه لطف الله بهم ، ثم تصرُّف خالد الحصيف ، وهكذا تكون القيادة والريادة[1] .

وهناك سبب كان من أقوى الأسباب التى حفزت عنترة إلى خوض الشدائد ، وعلى قول الشعر ، ألا وهو حبه الجائح لآسرة لبه ومالكه فؤاده « عبلة » بنت عمه مالك بن معاوية ، وسيأتى الحديث عن ذلك الحب فيما بعد ، ولاشك أنه من هموم الشباب فى حياته ، وهل سلمت حياة الشبان من خطرات العاطفة ووساوس الوجدان ؟ إنها ركاز القلب وحافز الهمة ، وما أعظم خطر الحب وأبعد مداه فى حياة الخالدين المبرزين ! .

---

(١) « الطبرى » جـ ٣ ص ١٩٧ : « نور اليقين » ص ٢٠٤ ، « السيرة الحلبية » جـ ٣ ص ٧٦ ، « سيرة ابن هشام » جـ ٣ ص ٤٢٧

محمد الخضرى / محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ح ١ ص ١٢٨ ، ١٢٩ ط ٤ ، ابن رشيق تحقيق محيى الدين عبد الحميد / العمدة حـ ١ ص ١٩ .

ملامح وسمات شخصية

يتمثل عنترة لعارف خبر بطولته وفروسيته ، ولقارئ شعره عملاقاً ضخم الجسم ، عظيم الهامة ، عبل الذراعين ، ملتمع العينين ، حاد النظرات ، حسن القسمات ، مفتول العضلات ، صلب العود أسود اللون .

ثم هو أبيٌّ لا يقبل الضيم ، حسَّاس ذكى الفؤاد ، وفيّ لا يطيق العقوق ، جواد وافر السخاء ، شجاع قوى الأسر ، إذا جد الخطب ألفيته طليعة القوم ، يحمل حملة الرئبال ، ويكر كرة القسورة ، تتحاماه الفرسان ، وتكره لقاءه الأقيال ، وإذا نهد لعدوه فكأنه القضاء المسلط ، أو الشهاب المنقض ، أو البركان المتفجر ، أو اللهب الثائر .

ثم هو صاحب مروءة ونجدة ، لا يستبى النساء ويعاف المغانم ، ويحفظ الحرمات ، ويرعى الجوار ، ويقبل العثرات ، ويتسامح فى الزلات . وهو إلى ذلك داهية فى الرأى ، صاحب قول ومشورة ، ظاهر فى قومه ، مبرز فى عشيرته موضع أمل وموئل رغبة .

كما أنه فى الحرب حامى القبيلة ، وفارس القوم وقائدهم يحتمون به إذا عتا الكرب ، وحمى الطعن والضرب .

كل هذه الصفات خَلْقية وخُلُقية مكنت له شهرته فى الناس ، ومكانه فى القلوب ، وهيبته عند الأعداء ، واقتعاده ذروات المجد .

صور من شمائله فى شعره

يفضل عنترة الاستقلال فى الرأى ، وأن يكوّن الفتى لنفسه نهجاً من ذات نفسه ، يحث خطاه إليه لا يقوده إليه قائد ، أو يحمله عليه غيره ، كما يستحث الفتيان على أن يخوضوا الصعاب ، ويقتحموا الأزمات بفؤاد ذكى وأنف حمىّ ، وأن يجعلوا همهم قِرَى الضيفان ، وحل ما يعترض طريقهم من مشكلات فلا تتبدد طاقتهم عند هبوب ريح النكبات والمصائب ، ولا تفزعهم الأعاصير ، وإلا كان الموت خيراً من حياة تطير نفس صاحبها شَعاعاً عندما تحل به المعضلات ، وتزحمه الكوارث ، وليس له من نفسه مرشد أو هاد :

وَلَلموتُ خيرٌ للفتى من حَياته ... إذا لم يثب للأمْرِ إلا بقائد
فعالج جسيمات الأمُور ولا تكن ... هبيت الفؤاد همه للوسائد
كفى حاجة الأضياف حتَّى يُريحها ... عن الحى منَّا كل أروعَ ماجد
تراهُ بتفريج الأمُور ولفّها ... لما نال من معروفها غير زاهد

وليس أخونا عند شرٍّ يخافه ولا عند خيرٍ إن رجاه بواحد
إذا قيلَ مَنْ للمعضلات أجابهُ عظام اللهى منا طوال السواعد[١] ؟ !

وهو لا يقبل الحياة مازجها الهوان مهما تكن المغريات ، فهى فى حلقه غصص وشجى :

لا تسقنى ماء الحياة بذلّةٍ بل فاسقنى بالعزّ كأس الحنْظَل
ماء الحياة بذلة كجهنّم وجهنم بالعزّ أطْيب منزل[٢]

وهو يحب الخيل ويتألّفها ويرى أنها مانعة الأجناد وعدة الطراد :

ويمنعُنا من كلّ ثغرٍ نخافة أقبّ كسرحان الإباءة ضامر
وكلّ سبوحٍ فى العنان كأنّها إذا اغتسلت بالماء فتخاء كاسر[٣]

ويصف الفرس أيضاً بقوله :

أما إذا اسْتقبلتهُ فكأنهُ جذع سما فوق النَّخيل مشذَّب
وإذا عرضت له اسْتوتْ أقرابُه وكأنّه مُستدْبراً مُستصوب[٤]

ويشبه رءوس الخيل برءوس النساء :

وإنّا نقوُد الخيْلَ تحكى رءوسُها رُءوسَ نساءٍ لايجدن فواليا[٥]

ثم هو لايغادر المعركة حتى يرى الخيل وقد تسربلت بالدماء ، وعثرت بالأشلاء ، واحتز هو رأس زعيم العدو :

حتَّى رأيتُ الدَّهم بَعْدَ سَوادها حُمر الجلُود خضبنَ من جَرْحاها
يعثرن فى نَقْع النَّجيع جَوافِلا ويطَأن مِن حمى الوغَى صَرْعاها
فَرجعتُ محْمودا برأسِ عَظِيمها وتَركتها جزراً لِمَنْ ناواها[٦]

ويصورّ أيضا فى وصف حصانه فى المعركة هذه الصورة التشبيهية الرائعة :

يدْعُون عَنْتر والرِّماح كأنّها أشْطَان بِئر فى لبانِ الأدْهَم

---

(١) أبو على القالى / الأمالى ج ٢ ص ١٦٥ ، الديوان ص ٥٠ .
(٢) عمر الدسوقى / الفتوة عند العرب ص ٤٣٤ ، الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية حـ ١ ص ٨٢٥ .
(٣) محمود شكرى الألوسى / بلوغ الأرب حـ ٢ ص ٧٨ ط . الرحمانية .
(٤) محمود شكرى الألوسى / بلوغ الأرب حـ ٢ ص ١٠١ ط الرحمانية .
(٥) « الديوان » ص ١٩٣ .
(٦) « الديوان » ص ١٨٥ .

مـازِلْت أَرميهِم بثغْـرة وَجْـهـه ولبـانـه حتَّى تَسـرْبَـل بـالـدَّم[٣]

وهو يعرف لنفسه مكانها فى الحروب ، ومنازلته للأقران ، وخطفه أرواحهم عند الطعان كما أنه يتصور نفسه لا ساقى الموت ولكن الموت بعينه يصيب فيصمى :

وهو يترك الأعداء فى تخبط يدورون حول قتلاهم مبهورين مأخوذين :

تـركـتُ بنى الهـجِيـم لَهـم دُوار إذا تَمضى جَمـاعـتهم تُعـود[١]

وعفافه عن المغانم معروف دائماً يخبر به من شهد وقائعه :

يخبـركَ منَ شَهِد الـوقيعـةَ أَنَّنى أَغْشَى الوغَى وأعفُّ عندَ المَغْنَم

ولم يوهن عزيمته ما شهد ويشهد من ممارسة الحرب والطعان ، ولكن ما أثر فيه إنما هو تقادم الزمن وهجوم المشيب ، ومن أمثال العرب ، إذا طال عمر الرجل أن يقولوا : لقد أكل عليه الدهر وشرب ، وهم يريدون أنه أكل وشرب دهراً طويلا :

فَـما أَوْهَى مراس الحـرْبِ رُكِنى ولكن مـا تَـقـادمَ مِنْ زمَـانى

وهو كعادة أهل الجاهلية يصف زجر الغراب فيقول :

حَـرق الجَنَاح كـأنَّ لحَيى رأْسِـه جلَمَان بـالأخبْـارِ هشّ مُـولـع[٢]

ثم هو إذا اعتذر وَفَى العُذر عند من يقبل العذر :

لَعَمرى لَقد أَعْذَرت لَوْ تَعْذِرِينَنى وخَشَّنتِ صَدراً جيبه لكِ ناصعُ[٣]

وهو إذا سخر عنف فى سخريته وترك خصمه أضحوكة العرب ، وإذا استمعت إليه هاجياً عمارة بن زياد الذى كان ينفس على عنترة منزلته العظيمة ، ويحسده على مكانته البارزة ، أدركت طرافة القول فى تجسيم مظاهر الخوف فى هذا النموذج البشرى المرتعد :

أَحَـوْلى تنفُض أَسْتَـك مِـذْرَوَيْـهـا لِـتـقْـتـلَنى فَـهـأنـذا عُـمـارا

متى مـا تَلْقنى فَـرديْن تـرجُف رَوانـف إليَـتـيْـك وتسْـتَـطارا[٢]

---

(١) أسامة بن منقذ الكنانى / لباب الآداب ص ٤٦٩ - واللبان : الصدر وتروى : بثغرة نحره .

(٢) ابن قتيبة / اشعر والشعراء حـ ١ ص ١٤٨ .

(٣) أبو تمام / شرح ديوان الحماسة ، صفة أبى على بن محمد الحسن المزروقى ونشر أحمد أمين وعبد السلام هارون - القسم الأول ص ٤٢٥ مطبعة دار التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٥١ .

(٤) أبو عثمان بن بحر الجاحظ / البيان والتبين تحقيق عبد السلام هارون حـ ١ ص ٨٢ .

(٥) أبو على القالى « الأمالى » جـ ١ ص ١٠٧ .

(٦) المذروان : طرفا الإليتين الروانف : أسفل الإلية .

وليس عنترة بالسفيه الطائش ، فإنه ليعرف مساوئ الحرب ويقدر ويْلاتها ، ويعتقد أن حرب داحس والغبراء ستجر على قومه مصائب كثيرة لم تكن لها مبرراتها ، ويظهر ذلك واضحاً فى رثائه لصديقه النابه :

فللَّهِ عَينا مَنْ رَأى مِثْل مَالك عِقيرَةَ قَومٍ أنْ جَرَى فَرْسان
فَلَيْتَهما لَمْ يَجْريا قِيد غَلوةً ولَيْتهما لَمْ يُرسلا لِرهان
لَقَد جَلَبا حيْناً وحَرْباً عَظيمةً تُبيد سراة القَوْم من غَطَفان

وفرائد عنترة فى هذا المجال وفيرة ، وليس ما نهدف إليه الاستقراء والاستقصاء ، ولكنه التدليل والتمثيل[٣] .

بطولته وبعض أخباره :

تنحصر فلسفة المجد عند عنترة فى مظاهر القوة والبطولة ، والفتك بالأعداء ، وإيرادهم موارد الهلكة والفناء ، وهى فلسفة ليست بالغريبة على عنترة ، بل إنها لتستمد أصولها من بيئته ونشأته وتتفرَّع من جذور وشائج قبلية :

دَعُونى فى القتال أَمُتْ عَزيزاً فموتُ العزِّ خَيرٌ مِنْ حياة
لَعَمْرى ما الفخار بكَسْب مالٍ ولا يدْعى الغنى مِن السَّراة

وقد احتل عنترة مكانه فارساً لقبيلة عبس على ما فيها من عديد الفرسان ، وأنجاد الفتيان ، ولكنها عرفته فأحلته مكان القيادة فى حربها ونزالها .

قال عمر بن الخطاب للحطيئة العبسى : كيف كنتم فى حربكم ؟ قال : كنا ألف فارس حازم قال : وكيف يكون ذلك ؟ قال : كان قيس بن زهير فينا ، وكان حازما فكنا لا نعصيه ، وكان فارسنا عنترة ، فكنا نحمل إذا حمل ، ونحجم إذا أحجم ، وكان فينا الربيع بن زياد ، وكان ذا رأى فكنا نستشيره ، ولا نخالفه ، وكان فينا عروة بن الورد ، فكنا نأتمُّ بشعره ، فكنا كما وصفت لك ، فقال عمر : صدقت[١] .

---

(١) يرى مارون عبود فى كتابه « أدب العرب » – ص ٧٨ طبع دار الثقافة – أن الكبت ومركب النقص كانا عاملين من العوامل التى أثرت فى شخصية عنترة وأججتْ طموحه إلى المجد وقول الشعر .

(٢) أبو الفرج الأصفهانى الأغانى جـ ٨ ص ٢٤٤ ولكأنما يصدق فى الربيع بن زياد قول أوس بن حجر فى فضالة بن كوة .

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

(تراجع القصيدة كاملة فى كتاب ذيل الأمالى والنوادر للقالى ص ٣٤ ، ٣٥) .

ويعد عبد الملك بن مروان عنترة واحداً من أربعة هم فى رأيه أشجع شجعان العرب وهم : عباس بن مرداس السلمى ، وقيس بن الخطيم ، وعنترة ، ورجل من مزينة وذلك لقول عنترة :

إذ يَتَّقــون بى الأسنَّـة لَم أخم عَنْهــا ولكنِّى تَضــايق مَقْــدمى[1]

ومن مظاهر بأسه وشدته ، وقوة بلاغته وبيانه ، أن بنى عبس غزت بنى تميم ، وعليهم قيس بن زهير ، فانهزمت عبس وطلبتها تميم ، فوقف لهم عنترة يذود عنهم غارة الثائرين ، ولحقتهم الخيل ، وثبت عنترة لهم ثبات الصناديد فلم يصب مدبر منهم حتى استنقذهم من كبوتهم ، وكان قيس بن زهير سيد عبس ، فَهَاله ذلك الموقف ، وساءه ، ولعل ذلك كان فى مقتبل أمر عنترة ، فقال حين رجع : والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء ، وكان قيس أكولا ، فبلغ عنترة ما قاله ، فقال يعرِّض به فى قصيدته :

طـالَ الثُّواء عَـلَى رسُوم المنْـزِل بَيْن اللكيك وبَيْن ذات الحَرْمل[2]

يقول منها :

بَكَـرت تخـوفنى الحتُـوفَ كـأنَّنى أصبحتُ عَن غَرضِ الحتُوف بمعزلِ[3]
فـأجَبتُهـا أنَّ المنيَّـةَ منهـلٌ لابـدَّ أنْ أسْقى بِكأسِ المنهـلِ
فاقْنىْ حَياءكِ لا أبَـالكِ واعْلَمى أنِّى امرؤٌ سأمـوتُ إنْ لَم أُقتلِ
إنَّ المنيـةَ لَـو تَمثـل مثّلت مِثْلى إذا نزلُـوا بضَنك المنـزلِ !
إنِّى امرؤٌ مِن خَير عَبسٍ مَنْصباً شَطرى وأحْمِى سَائـرى بالمنْصـلِ
وإذَا الكَتيبـة أحْجَمت وتلاحَـظَت أُلفيتَ خَيـراً مِنْ مُعَمّ مخْـولِ
والخَيـل تَعلَم والفَـوارسُ أنَّـنى فـرَّقْت جَمعهُم بضَـرْبـة فَيصـلِ
إذْ لا أُبادِر فى المضِيقِ فَوارِسي أوْ لا أوكـل بالـرَّعيـلِ الأوَّلِ
إنْ يَلحقُوا أكْرُر وإنْ يَستلِحمُوا أشْـدُد وإنْ يُلفوا بضَنـك أنْـزلِ
والخيـلُ سَاهِـمة الـوجُـوه كـأنَّما تَسقى فَـوارسهـا نَقيـع الحنْظَلِ
ولَقَـد أبيتُ عَلَى الـطَّوى وأظلّه حتَّى أنـال بـهِ كَـريمِ المـأكَـلِ

---

(١) يعقوب بن إبيكاريوس / نهاية الأرب فى أخبار العرب ص ٢٠٦ - دار الطباعة العربية ، وأخم : أجبن . .

(٢) الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية ح ١ ص ٧٩٥ .

(٣) أبو عثمان بن بحر الجاحظ / البيان والتبين تحقيق عبد السلام هارون ح ٣ ص ١٨٣ .

وإذَا حَمَلت عَلى الكَرِيهة لَم أقُلْ بَعْـد الكَـرِيهـة ليْتنى لم أفْعـل[١]

وقد ٱستخذى قيس وحسدة عنترة عند سماعهم هذا الشعر ، وشعروا بُنكْرانهم حقوق عنترة وأفضاله عليهم ، فخففوا من غُلَوائهم وكفكفوا من كبريائهم .

وقال عمرو بن معديكرب الزبيدى : ما أبالى من لقيت من فرسان العرب مالم يلقنى حُرّاها وهَجِيناها ، يعنى بالحرَّيْن عامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وبالهجينَيْن عنترة والسليك بن السلكة[٢] .

وقال ابن الكلبى : عنترة وأمه زبيبة ، وخفاف بن عمير الشريدى وأمه ندبة ، والسليك بن عمير السعدى وأمه السلكة[٣] .

لم يكف عنترة ما ناله فى مجال النسب ، حيث استحلق بأبيه ، بل أراد أن يستهدف التشريف إخوة له من أمه ، كان أحبهم إليه أخاه « حنبلا » ، وأراد أن يلحقوا بقومه ، فدبر لذلك أمراً ، إذ أوعز إلى أخيه « حنبل » أن يروّى مُهراً له من اللبن ، ثم يمر به عليه عشاء مع إخوته ، فإذا قال لهم : ما شأن مهركم متخدداً مهزولا ضامراً ؛ ضرب « حنبل » بطن المهر بالسيف علامة الغضب والسخط مما يقول له عنترة ، وحين نفّذ حنبل خطته سأله عنترة فى جمع من القوم : ما شأن مهركم متخدداً عجر من اللبن ؟ فأهوى حنبل بالسيف على بطن المهر فضربه فظهر اللبن فقال عنترة :

أبنِى زَبيبَـة مـا لمهْـركـم مُتخَـدِّدا وبـطُونكُم عُـجْـر
أَلَكُم بـإيغـالِ الـوَليـدِ عَـلى إثْـر الشِّبـاه بـشـدَّة خُـبر

فاستلحق القوم حنبلا وإخوته وألصقوه بهم ، ولم يرض آخرون وإن لم يضرّ ذلك عنترة[٤] .

خاض عنترة أشد المعارك وأعظمها هولا ، وغزا عشرات الغزوات مع قومه ، كيف لا وهو صاحب حربهم ، وقائد جيشهم ، ومضرب المثل فى جميع أحياء العرب بإقدامه وجرأته .

---

(١) أبوالفرج الأصفهانى / الأغانى ح ٨ ص ٢٤١، الديوان ص ١١٨ - ١٢٠، الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية حـ - ١ ص ٨٩٥ ، أسامة بن منقذ الكنانى / لباب الآداب ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، أبو على القالى / الأمالى حـ ٢ ص ٧٢ ط دار الكتب ، الألوسى / بلوغ الأرب ح ١ ص ١٠٦ م الرحمانية .

(٢) أبو الفرج الأصفهانى / الأغانى ح ٨ ص ٢٤٦ ، ابن قتيبة / الشعر والشعراء راجع به ترجمة عمرو ص ٢٣٢ وما بعدها ، محمود الألوسى / بلوغ الآرب حـ ٢ ص ١٢٩ ، أسامه بن منقذ الكنانى / لباب الآداب تحقيق أحمد شاكر ص ١٨١ .

(٣) أبو الفرج الأصفهانى / الأغانى حـ ٨ ص ٢٤٠ ، ابن قتيبة / الشعر والشعراء ح ١ ص ٢٠٥ .

(٤) أبو الفرج الأصفهانى / الأغانى حـ ٨ ص ٢٤٣ ،٢٤٤ .

وقد تجلت فروسيته ومهارته فى الحرب والطراد أعظم ما تجلت فى معارك « داحس والغبراء » ، وما جرته من أيام هول وفزع ، سالت فيها الدماء أنهاراً بين عبس وذبيان . ولابد من الإتيان على خبر هذه الحرب التى كانت من أهم أسباب شهرة عنترة الفوارس فى ميادين القتال ، والتى كان أولها المراء والكلام كما هى عادة الحروب منذ بدء الخليقة حتى عصرنا هذا ، الذى هو الآن مسرح لأعنف حرب باردة ، تشنّ على أعصاب الشعوب ، وتعبث بآمالها ورغباتها ، وأخشى ما يخشاه دعاة السلام أن يعقبها اشتعال نار حرب عصرية ثالثة ، تستعمل فيها أفظع وسائل الدمار ، وأحدث ما أنتجه العقل البشرى من أسباب الفتك ومخترعات الإبادة والفناء .

حرب داحس والغبراء :

وأنباء حرب داحس والغبراء كما يرويها ابن الأثير[1] ، هى أن قيس بن زهير بن جذيمة العبسى ، سار إلى المدينة ليتجهّز لقتال بنى عامر ، والأخذ بثأر أبيه ! فأتى أحيحةَ بن الجلّاح يشترى منه درعاً موصوفة ، فقال له : لا أبيعها ، ولولا أن تذمنى بنو عامر لوهبتها لك ، ولكن اشترها بابن لبون ، ففعل ذلك وأخذ الدّرع وتسمى « ذات الحواشى » ، ووهبه أيضا أحيحة أدراعاً وعاد إلى قومه وقد فرغ من جهازه ، فاجتاز بالربيع بن زياد العبسى ، فدعاه إلى مساعدته على الأخذ بثأره فأجابه إلى ذلك ، فلما أراد فراقه نظر الربيع إلى حقيبته فقال : ماذا فى حقيبتك ؟ فقال متاع عجيب لو أبصرته لراعك ، وأناخ راحلته فأخرج الدرع من الحقيبة ، فأبصرها الربيع فأعجبته ولبسها ، فكانت فى طوله فمنعها قيساً ورغب فى أخذها ، وترددت الرسل بينهما ، فلما طالت الأيام على ذلك ، سير قيس أهله إلى مكة وأقام ينتظر غرة الربيع ، وسير الربيع إبله وأمواله إلى مرعى كثير الكلأ وأمر أهله فظعنوا ، فبلغ الخبر قيساً فسار فى أهله وإخوته ، فعارض ظعائن الربيع وأخذ زمام أمه فاطمة بنت الخرشب وزمام زوجته ، فقالت فاطمة أم الربيع : ما تريد يا قيس ؟ فقال : أذهب بكن إلى مكة فأبيعكن بها بسبب درعى ، فقالت : هى فى ضمانى وخلّ عنا ففعل . فلما جاءت إلى ابنها قالت له ذلك ، فحلف ألا يردّ الدرع . فأرسلت إلى قيس فأعلمته ، فأغار على نَعَم الربيع فاستاق منها أربعمائة بعير وسار بها إلى مكة ، فباعها واشترى بها خيلا ، وتبعه الربيع فلم يلحقه فكان فيما أشترى من الخيل داحس والغبراء ، وقيل : إن داحساً والغبراء كانا من خيل بنى يربوع واستباهما قيس ، وقيل : إن قيساً أنزى داحساً على فرس له فجاءت بمهرة فسماها الغبراء ، ثم إن قيساً أقام بمكة ، ولكن أهلها كانوا يفاخرونه ، فملّ مفاخرتهم وعزم على الرحلة عنهم ،

---

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٢٥٨ .

وقال لإخوته إرحلوا بنا من عندهم والحقوا ببنى بدر فإنهم أكفاؤنا فى الحسب ، وبنو عمنا فى النسب ، وأشراف قومنا فى الكرم ، ثم نزل ببنى بدر فنزل بحذيفة وأخيه حمل بن بدر ، وأقام فيهم ، وكان معه أفراس له ولإخوته وكان حذيفة يغدو ويروح إلى قيس فينظر إلى خيله فيحسده عليها ويكتم ذلك فى نفسه .

وكتب الربيع بن زياد إلى حذيفة يقول :

ألَا بلِّغ بَنى بَدْر رسُولا ... عَلى ما كانَ مِنّ شَنأ ووتر
بأنّى لم أزَل لَكُم صديقاً ... أُدافِع عَن فَزَارة كلَّ أمر
فأَلجأتُم أخا الغَدرات قَيساً ... فَقد أفعَمْتم إيغار صدرى
فَحسْبى مِنْ حُذيفَة ضمّ قَيسٍ ... وكانَ البَدْء مِنْ حمل بنِ بَدْر

فلم يتغيروا عن جوار قيس ، فغضب الربيع وغضبت عبس ، ثم إن حذيفة كره قيساً وأراد إخراجه فلم يجد حجة ، وعزم قيس على العمرة فقال لأصحابه : إنى قد عزمت على العمرة ، فإياكم أن تلابسوا حذيفة بشىء ، واحتملوا كل ما يكون منه حتى أرجع فإنى قد عرفت الشرّ فى وجهه ، وليس يقدر على حاجته منكم إلا أن تراهنوه على الخيل ، وكان ذا رأى لا يخطئ فيما يريده وسار إلى مكة ، ثم إن فتى من عبس يقال له : ورد بن مالك ، أتى حذيفة فجلس إليه ، فقال له : لو اتخذت من خيل قيس فحلا يكون أصلا لخيلك ، فقال حذيفة : خيلى خير من خيل قيس ولجّا فى ذلك إلى أن تراهنا على فرس من خيل قيس ، وفرس من خيل حذيفة ، والرهن عشرة أزواد ، وسار ورد فقدم على قيس بمكة فأعلمه ، فقال له : أراك قد أوقعتنى فى بنى بدر ، ووقعت معى وحذيفة ظلوم لا تطيب نفسه بحق ، ونحن لا نقر له بضيم ، ورجع قيس من العمرة ، فجمع قومه وركب إلى حذيفة وسأله أن يفك الرهن فلم يفعل ، فسأله جماعة فزارة وعبس فلم يجب إلى ذلك وقال : إن أقر قيس أن السبق لى وإلا فلا ، فقال أبو جعدة الفزارى :

آلَ بَدْر دَعوا الرِّهان فَإنا ... قَدْ مللنا اللَّجاج عِند الرِّهان
ودَعُوا المرءَ فى فزارةَ جَاراً ... إن ما غابَ عَنْكم كالْعيان
لَيتَ شِعْرى عَنْ هاشمٍ وحُصين ... وَٱبْنِ عوفٍ وحارثٍ وَسِنان
حينَ يَأتيهم لجاجكَ قَيساً ... ولَصَاح أَتَيت أَمْ نَشْوان

وقال قيس : علام تراهننى ؟ قال : على فرسيك داحس والغبراء ، وفرسىّ الخطار والحنفاء ، وقيل : كان الرهن على فرسين داحس والغبراء ، قال قيس : داحس أسرع ، وقال حذيفة : الغبراء أسرع ، وقال لقيس : إن بصرى بالخيل أثقب من بصرك : والأول

أصح[١] . فقال له قيس : نفس فى الغاية وارفع فى السبق ، فقال حذيفة : الغاية من أبلى[٢] إلى ذات الآصاد وهو قدر مائة وعشرين غلوة ، والسبق مائة بعير ، وضمروا الخيل ، فلما فرغوا قادوا الخيل إلى الغاية ، وحشدوا ولبسوا السلاح ، وتركوا السبق على يد عقال بن مروان بن الحكم القيسى ، وأعادوا الأمناء على إرسال الخيل ، وأقام حذيفة رجلا من بنى أسد فى الطريق ، وأمره أن يلقى داحساً فيرمى به إلى أسفل الوادى ، فلما أرسلت الخيل سبقها داحس سبقاً بيناً ، والناس ينظرون إليه وقيس وحذيفة على رأس الغاية فى جميع قومهما ، فلما هبط داحس فى الوادى عارضه الأسدى ، فلطم وجهه فألقاه فى الماء ، فكاد يغرق هو وراكبه ، ولم يخرج إلا وقد فاتته الخيل ، وأما راكب الغبراء فإنه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ وعاد إلى الطريق ، واجتمع مع فرسَى حذيفة ، ثم سقطت الحنفاء[٣] وبقيت الغبراء والخطار ، فكانا إذا أحزنا سبق الخطار ، وإذا أسهلا سبقت الغبراء ، فلما قربا من الناس وهما فى وعث من الأرض تقدم الخطار ، فقال حذيفة : سبقتك يا قيس ، فقال : رويدك يعلون الجدّد فذهبت مثلا ، فلما أستوت بهما الأرض قال حذيفة : خدع والله صاحبنا ، فقال قيس : ترك الخداع من أجرى من مائة وعشرين . فذهبت مثلا ، ثم إن الغبراء جاءت سابقة وتبعها الخطار فرس حذيفة ، ثم الحنفاء له أيضاً ، ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير به على رسله ، فأخبر الغلام قيساً بما صُنع بفرسه ، فأنكر حذيفة ذلك وادّعى السبق ظلماً وقال : جاء فرسای متتابعين ، ومضى قيس وأصحابه حتى نظروا إلى القوم الذين حبسوا داحساً واختلفوا ، وبلغ الربيع بن زياد خبرهم فسره ذلك وقال لأصحابه : هلك والله قيس ، وكأنى به إن لم يقتله حذيفة وقد أتاكم يطلب الجوار ، أما والله لئن فعل مالنا من ضَمه من بد .

ثم إن الأسدى ندم على حبس داحس ، فجاء إلى قيس واعترف بما صنع فسبه حذيفة ، ثم إن بنى بدر آذوا قيساً وإخوته بالكلام ، فعاتبهم قيس فلم يزدادوا إلا بغياً عليه وبذاءة له ، وتناكر قيس وحذيفة فى السبق حتى همّا بالمؤاخذة ، فمنعهم الناس وظهر لهم بغى حذيفة وظلمه ، ولجُ فى طلب السبق ، فأرسل ابنه ندبة إلى قيس يطالبه به ، فلما أبلغه الرسالة طعنه فقتله ، وعادت فرسه إلى أبيه ، ونادى قيس : يا بنى عبس الرحيل فرحلوا كلهم ، ولما أتت

---

(١) ابن الأثير حـ ١ ص ٣٦١ ط المطبعة الأزهرية ، ابن قتيبة الشعر والشعراء حـ ١ ص ٢٠٦ ، ابن منظور / لسان العرب حـ ٧ ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، محمد جاد المولى وعلى البجاوى ، وأبو الفضل ابراهيم / أيام العرب ص ٢٤٦ ، أبو الفرج الأصفهانى / الأغانى حـ ٥ ص ٣٣ ، القلقشندى صبح الأعشى ح ١ ص ٣٤٤ م الأميرية .

(٢) أبلى - بضم الهمزة وفتح اللام مقصورة - جبال سود واقعة فى الشمال الشرقى من معدن بنى سلم (مهد الذهب) .

(٣) ابن الكلبى / أنساب الخيل (ص ٢٥) ورد فيه : أن الحنفاء من خيل عطفان بن سعد أخت داحس لأبيه من ولد ذى العقال لحذيفة بن بدر الفزارى ، وأن الغبراء من خيل غطفان بن سعد كانت لقيس بن زهير بن جذيمة وهى خالة داحس وأخته لأبيه .

الفرس علم حذيفة أن ولده قتل ، فصاح فى الناس وركب فيمن معه وأتى منازل بنى عبس فرآها خالية ، ورأى ابنه قتيلا فنزل إليه وقبل بين عينيه ودفنوه ، وكان مالك بن زهير أخو قيس متزوجاً من فزارة وهو نازل فيهم ، فأرسل إليه قيس : إنى قد قتلت بدر بن حذيفة ورحلت ، فالحق بنا وإلا قتلت . فقال : إنما ذنب قيس عليه ولم يرحل ، فأرسل قيس إلى الربيع بن زياد يطلب منه العودة إليه والمقام معه إذ هم عشيرة وأهل ، فلم يجبه ولم يمنعه . ثم إن بنى بدر قتلوا مالك بن زهير أخا قيس ، فبلغ مقتله بنى عبس والربيع بن زياد ، فاشتد ذلك عليهم وأرسل الربيع إلى قيس عيناً يأتيه بخبره فسمعه يقول :

أينْجُوا بنُو بَدْر بمَقْتَل مالكٍ ... ويخْذلنَا فى النَّائباتِ رَبِيع
وكانَّ زِياد قبله يتَّقى به ... مِن الدَّهر إنْ يَومٌ ألَمَّ فَظِيع
فقُلْ لرَبيع يحْتَذى فِعْل شَيْخه ... ومَا الناسُ إلَّا حافِظٌ ومُضيع
وإلا فما لى فى البلاد إقامةٌ ... وأمْر بنِي بَدْر عَلىّ جَمِيع

فرجع الرجل إلى الربيع ، فبكى الربيع على مالك وقال :

مَنَع الرُّقاد فَما أغمض سَاعَة ... جَزعاً مِنَ الخبر العَظيمِ السَّارى
أفَبَعْد مَقْتل مَالك لمضيعَة ... يرْجُو النِّساء عَواقبَ الإطْهارِ ؟
مَنْ كانَ محْزُوناً بمَقْتَل مالكٍ ... فَلْيأت نِسْوتنا بوجْهِ نَهار
يجِدُ النِّساء حَواسراً يَنْدُبنه ... ويقُمْن قَبل تبلُّج الأسْحار
يضْرِبنَ حَرّ وُجوهِهنَّ عَلى فتًى ... ضَخْم الدَّسيعَة غَيْر ما خَوّار

وهى قصيدة طويلة فسمعها قيس ، فركب هو وأهله وقصدوا الربيع بن زياد وهو يصلح سلاحه ، فنزل إليه قيس ، وقام الربيع فاعتنقا وبكيا ، وأظهرا الجزع لمصاب مالك ، ولقى القوم بعضهم بعضاً . فقال قيس للربيع : إنه لم يهرب منك من لجأ إليك ، ولم يستغن عنك من استعان بك ، وقد كان لك شرّ يومىّ ، فليكن لى خير يوميك ، وإنما أنا بقومى وقومى بك ، وقد أصاب القوم مالكاً ولست أهمّ بسوء ، لأنى إن حاربت بنى بدر نصرتهم بنوذبيان ، وإن حاربتنى خذلنى بنو عبس تجمعهم علىّ وأنا والقوم فى الدماء سواء ، قتلت ابنهم وقتلوا أخى ، وإن نصرتنى طمعت فيهم ، وإن خذلتنى طمعوا فىّ ، فقال الربيع : يا قيس إنه لا ينفعنى أن أرى لك من الفضل مالا أراه لى ، ولا ينفعك أن ترى لى مالا أراه لك ، وأنت ظالم ومظلوم ، ظلموك فى جوادك وظلمتهم فى دمائهم ، وقتلوا أخاك بابنهم ، فإن يبؤ الدم بالدم فعسى أن

تلقح الحرب أقم معك ، وبعث قيس إلى أهله وأصحابه فجاءوا ونزلوا مع الربيع ، وأنشدهم عنترة بن شداد مرثيته فى مالك - وكان صديقه - التى يقول منها :

فللَّهِ عَيْنا مَنْ رَأى مِثْلَ مَالكٍ ... عَقِيرة قَومٍ إنْ جَرَى فُرسان
فَلَيْتهما لَم يَطْعما الدَّهر بَعْدها ... ولَيْتهما لَم يَجمعا لِرهَان
وكنَّا لَدَى الهَيْجَاء نَحْمى نِساءَنا ... ونَضْرب عِنْد الكُرْب كلَّ بَنان
فَسوفَ تَرى إنْ كُنْت بَعْدك بَاقياً ... وأمْكَنِنى دَهْرى وطُول زمانى
فأقسم حَقًّا لَو بَقيتُ لِنظرةٍ ... لقرَّت بِها العَينانِ حين تَرانى[1]

وبلغ حذيفة أن الربيع وقيساً أتفقا عليه ، فشق ذلك عليه ، واستعد للبلاء ، وجمع الربيع وقيس قومهما واستعدوا للحرب . فأغارت فزارة على بنى عبس فأصابوا نعماً ورجالا ، فحميت عبس ، واجتمعت للغارة والتقوا على ماء يقال له العذق ، وهى أول وقعة كانت بينهم ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، وانهزمت فزارة وقتلوا قتلا ذريعاً ، وأسر الربيع بن زياد حذيفة ابن بدر ، وكان حرّ بن الحارث العبسى قد نذر إن قدر على حذيفة أن يضربه بالسيف ، وله سيف قاطع يسمى « الأصرم » ، فأراد ضربه بالسيف لما أسر وفاء بنذره ، فأرسل الربيع إلى امرأته فغيبت سيفه وحذروه عاقبة فعله فأبى إلا ضربه ، فوضعوا عليه الرجال فضربه فلم يصنع السيف شيئاً ، وبقى حذيفة أسيراً ، فاجتمعت غطفان وسعوا فى الصلح فاصطلحوا على أن يهدروا دم بدر بن حذيفة بدم مالك بن زهير ، ويعلقوا عوف بن بدر ، ويعطوا حذيفة بن بدر عن ضربته التى ضربها حرّ مائتين من الإبل ، وأن يجعلوها عشاراً كلها وأربعة أعبد ، وأهدر حذيفة دماء من قتل من فزارة فى الوقعة ، وأطلق من فى الأسر ، فلما رجع إلى قومه ندم على ذلك وساءت مقالته فى بنى عبس ، وركب قيس بن زهير وعمارة بن زياد فمضيا إلى حذيفة وتحدثا معه ، فأجابهما إلى الاتفاق وأن يردّ عليهما الإبل التى أخذت وكانت توالد عنده ، فبينما هم فى ذلك إذ جاءهم بنان بن أبى حارثة المرّىّ فقبح رأى حذيفة فى الصلح ، وقال : إن كنت لابد فاعلا فأعطهم إبلا عجافاً مكان إبلهم واحبس أولادها ، فوافق ذلك رأى حذيفة فأبى قيس وعمارة ذلك ، وجعل سنان يحث بحذيفة على الحرب فتيسروا لها وظهر بغى حذيفة ، وأغار حذيفة على عبس ، وأغارت عبس على فزارة ، وتجدد القتال واستحر ، ولقى قيس فى فزارة جمعا فيهم مالك بن بدر فقتله .

ويمضى ابن الأثير معدّداً الوقائع التى شب أوارها بين الفريقين فى هذه الحرب الضروس ،

---

(١) أوردنا هذه المرثية فى باب المختار من شعر عنترة ويروى البيت الثانى : « فليتهما لم يجريا نصف غلوة » .

وما اصطلمته من شباب وفتيان كان فيهم ابن لقيس بن زهير قتل غدراً ، كما قتل أكثر أبناء حذيفة بن بدر .

وفى جفر الهباءة[1] : كان مع حذيفة أخوه حمل بن بدر ، وابنه حصن بن حذيفة وغيرهم ، وقد لجئوا هاربين فهجم عليهم قيس والربيع فناشدوهم الله والرحم فلم يقبلوا منهم ، ودار قرواش بن عمرو حتى وقف خلف ظهر حذيفة فضربه فدّق صلبه ، وقتلوا حملا أخاه وقطعوا رأسيهما واستبقوا حصن بن حذيفة لصباه ، وكان عدد من قتل فى هذه الموقعة من فزارة وأسد وغطفان يزيد على أربعمائة قتيل ، وقتل من عبس ما يزيد على عشرين قتيلا .

واجتمعت فزارة إلى سنان بن أبى حارثة المرّى ، وشكوا إليه ما نزل بهم ، فأعظمه وبعث رسله ليجمع العرب ويأخذ بثأرى بدر وفزارة ، واجتمع من العرب خلق كثير لا يحصون ، وساروا إلى بنى عبس : فلما بلغهم مسيرهم قال قيس : الرأى ألا نلقاهم ونرسل الظعائن والأموال إلى بنى عامر ، فإن الدم لنا قبلهم وغاطلهم القتال ، فإن أبوا إلا القتال قاتلناهم وصبرنا ، فإن ظفرنا فهو الذى نريد ، وإن كانت الأخرى كنا قد أحترزنا ولحقنا بأموالنا ونحن على حامية ، وسارت ذبيان ومن معها فلحقوا بنى عبس على « ذات الجراجر » فاقتتلوا قتالا شديداً ، وظهرت فى هذه الأيام شجاعة عنترة بن شداد[2] ولام الناس سناناً على منعه الصلح ، فلما رأى فتور أصحابه رحل عائداً فلما عاد عنهم رحل قيس وبنو عبس إلى بنى شيبان ابن بكر وجاوروهم ، وبقوا معهم مدة ، فرأى قيس من غلمان شيبان ما يكرهه من التعرض لأموالهم ، فرحلوا عنهم فتبعهم جمع من شيبان فلقيتهم بنو عبس فانهزمت شيبان ، ونزلوا بماء يقال له : « عرعر » عليه حى من كلب فركبوا ليقاتلوا بنى عبس ، فبرز الربيع وطلب رئيسهم فبرز إليه واسمه مسعود بن مصاد فاقتتلا حتى سقطا إلى الأرض ، وثار به الربيع فقطع رأسه ، وانهزمت كلب وغنمت عبس أموالهم وذراريهم ، فساروا إلى اليمامة فحالفوا أهلها من بنى حنيفة وأقاموا ثلاث سنين فلم يحسنوا جوارهم ، وضيقوا عليهم فساروا عنهم ، فراسلتهم بنو ضبة وعرضوا عليهم المقام عندهم ففعلوا ، واستعانت بهم ضبة على حرب تميم فأعانوهم ، وحين انقضى الأمر تغيرت ضبة لعبس ، فحاربتهم عبس فظفرت وغنمت ، وسارت إلى بنى عامر وحالفوا الأحوص بن جعفر بن كلاب فسر بهم ليقوى على حرب بنى تميم . ثم إن ذبيان غزت بنى عامر وفيهم بنو عبس فاقتتلوا ، فهزمت عامر وأسر قرواش بن هنى العبسى ولم يعرف ، فلما قدموا به الحى عرفته امرأة فيهم ، فلما عرفوه سلموه إلى حصن بن حذيفة فقتله . ثم رحلت عبس عن عامر ونزلت بتيم الرباب فبغت تيم عليهم

---

(١) ابن رشيق / العمدة تحقيق محيى الدين عبد الحميد حـ ١ ص ١٩٣ م حجازى .

(٢) ابن قتيبة / الشعر والشعراء حـ ١ ص ٣٠٦ .

فاقتتلوا قتالا شديدا ، وتكاثرت عليهم تيم فقتلوا من عبس مقتلة عظيمة ، ورحلت عبس وقد ملوا الحرب ، وقلت الرجال والأموال ، وهلكت المواشى ، فقال لهم قيس : ما ترون ؟ قالوا : نرجع إلى إخواننا من ذبيان فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم ، فساروا حتى قدموا على الحارث بن عوف بن أبى حارث المرى ، وقيل : على هرم بن سنان بن أبى حارثة ليلا .. وكان عنده حصن بن حذيفة بن بدر ، فلما عاد ورآهم رحب بهم ، وقال : مَنِ القوم ؟ قالوا : إخوانك بنو عبس وذكروا حاجتهم ، فقال : نعم ، وكرامة وأخذهم إلى حصن ، فلما رآهم قال قيس والربيع بن زياد : نحن ركبان الموت ، قال : بل ركبان السلم ، ثم خرج معهم وقال لسنان : قم بأمر عشيرتك وأصلح بينهم فإنى سأعينك ، ففعل ذلك وتم الصلح بينهم وعادت عبس[1] . وقيل : إن قيس بن زهير لم يسر مع عبس إلى ذبيان ، وقال : لاترانى غطفانية أبداً وقد قتلت أخاها أو زوجها أو ولدها أو ابن عمها ، ولكنى سأتوب إلى ربى ، فتنصَّر وساح فى الأرض حتى انتهى إلى عمان فترهب بها زمناً ، فلقيه حوج بن مالك العبدى فعرفه فقتله ، وقال : لا رضى الله عنى إن رحمتك ، وقيل : إن قيساً تزوج فى النمر بن قاسط لما عادت عبس إلى ذبيان ، وولد له ولد اسمه فضالة ، فقدم على النبى صلى الله عليه وسلم وعقد له على من معه من قومه وكانوا تسعة وهو عاشرهم .

هذا ما رواه ابن الأثير فى تاريخه ، وقد عرض صاحب العقد الفريد أحمد بن عبد ربه فى مصنفه لبعض مواقع حرب داحس والغبراء ، ومنها يوم المريقب[2] لبنى عبس على فزارة وفيه يقول عنترة :

ولَقَد عَلمت إذا التَقَت فُرْسانها ... يَـوم المـريقِبِ أنَّ ظَنَّـك أحْمَق

وذو المريقب من أرض الشربَّة إقتتل فيه الفريقان ، وقتل من بنى فزارة عوف بن زيد بن عمرو بن أبى الحصين ، وضمضم أبو الحصين المرّى قتله عنترة الفوارس ، وقد بلغ عنترة أن حصيناً وهرماً ابنى ضمضم يشتمانه ويتوعدانه ، فقال فى معلقته التى سيأتى الحديث عنها فيما بعد :

ولَقَـد خَشِيت بأنْ أمُـوتَ ولم تَقُم ... للحَـرْب دَائـرةٌ عَـلى آبْنَى ضَمْضم
الشَّـاتمَىْ عِـرْضى ولَمْ أشْتِمْهُـما ... والنَّـاذرين إذَا لَم الْقَهُـما دَمـى
إنْ يَفْعـلا فلَقَـد تَـركتُ أبـاهُمـا ... جَزَر السِّباع وكـلّ نَسْر قَشْعم[3]

---

(١) ابن الأثير جـ ١ ص ٢٥٨ و ٢٥٩ و ٢٦٠ و ٢٦١ و ٢٦٢ و ٢٦٣ و ٢٦٤ و ٢٦٥ و ٢٦٦ و ٢٦٧ المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠١ هـ .

(٢) ابن عبد ربه / العقد الفريد - المطبعة الجمالية جـ ٣ ص ١١٤ ، ٣١٥ .

(٣) عبد القادر البغدادى / خزانة الأدب جـ ١ ص ٦٢ ، عبد الحميد يونس الهلالية فى الأدب الشعبى ص ٢٤ ، ٢٧ .

والمرجح أن الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان هما اللذان سعيا للصلح بين عبس وذبيان – وتحملا ديات القتلى بين الفريقين ، وفيهما يقول زهير بن أبى سلمى من معلقته :

تَـداركْتما عَبْسـاً وذبْيانَ بَعْـد مـا تَفـانَوا ودَقّـوا بَينَهم عِطْر مَنْشم
فأصْبَحتُما مِنهـا عَلى خَـيرِ مَوطنٍ بَعيـدَيْن فِيها مِنْ عُقـوقٍ ومَـأْثم
عـظِيمَيْن فى عليـا مَعدٍّ وغَـيْرهـا ومَنْ يَستَبح كنزاً مِنْ المَجْدِ يعْظم[1]

تلك صورة مصغرة للحرب المشهورة بحرب داحس والغبراء ، يستشفُّ منها القارئ كيف كانت حال عبس قبيلة عنترة من الشماس والإباء ، فهى قبيلة تأنف الضيم ولاسيما من ذوى القربى ، وكأنها تتأسى بقولة طرفة :

وظُلْم ذَوى القُرْبى أشدُّ مَضـاضةً عَلى المَرْءِ مِنْ وَقْع الحُسامِ المهنَّد

ثم كيف استنزفت هذه الحرب دماءها وقواها ، واستهدفت زهرة شبابها وخيرة فتيانها ، حتى لقد ظلت هذه الحرب طيلة أربعين عاما تنخر فى شباب الفريقين وشيوخهم نخر السوس ، وتصطلم أخضرهم ويابسهم ، وبرغم ما أرثته تلك الحرب الضروس من حزازات وضغائن ، وما ولدته من ثارات وسخائم ، لم تستطع أن تقضى على شعور العصبية والعنصرية القَبَلى فى نفوس الفريقين ، فحلّ بينهم السلم أخيراً محل الحرب ، وذاقت نفوسهم برد الوئام بعد الويل والخصام ، ولا يعجبن القارئ أو يذهبن به الظن كل مذهب فى بواعث هذه الحرب ودوافعها ومقدماتها التى لا تهيئ للذهن نتائجها من المصائب والويلات ، فقد كان ذلك العصر عصراً تهون فيه النفوس ، ولا يرضى فيه أحد بالاعتداء ، سواء على العرض أو المال أو الولد ، كما أن كثيراً من غرائز النفوس وأحاسيسها لم تتهذب ولم يسلس طابعها الخشن الفظ ، وإن كانت هذه الحياة الجافة التى تصارعت فيها قوى الشر ، كانت حفيلة بمُثُل النجدة والحمية ، طافحة بشعور التعاون والتآزر ، بل التسامح حين يشتد الخطب ويتفاقم الكرب .

ونكتفى بما أوردناه من صور لبطولة عنترة ، وما ذكرناه عن حرب داحس والغبراء التى استنفدت أعظم جهوده فى الحرب ، والتى كانت البوتقة التى انصهرت فيها مزاياه من الشجاعة فى القتال ، والصبر على مرّ الكفاح فى سبيل نصرة مبادئ قومه ورفع شأن قبيلته .

ولقد جاءت حرب داحس والغبراء فى مدة لا تبعد كثيراً عن عقد الصلح فى حرب البسوس – وهى أقدم حروب البدو وأشهرها – ويعد الدكتور فيليب حتى عنترة الذى اشتهر

---

(١) الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية حـ ١ ص ٧٦ ، أبو زيد القرشى / جمهرة أشعار العرب م الرحمانية ص ٧٠ ، ٧١ ، أحمد حسن الزيات / تاريخ الأدب العربى طبعته سادسة ص ٤٣ ، ٤٦ .

أمره فيها شاعراً ومحارباً (AGHILLES) عصر البطولة العربى[١] - تشبيهاً ببطل اليونان الشهير الذى سجلت أمجاده إلياذة هوميروس الشاعر الخالد .

دفاعه عن اللون الأسود :

ولد عنترة أسود البشرة أبنوسى الأديم ، وكانت أمه أَمَة اختارها أبوه .

على أن سواد اللون لا يعيب صاحبه ، وقد قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « لافضل لأبيض على أسود ولا لعربى على عجمى إلا بالتقوى » فسواد اللون لايضر الشخص أبداً ، والتقى الأسود فى الإسلام خير ألف مرة من الأبيض عالى الحسب والنسب ، إذا كان لايرعى حرمات الدين : لذلك فإن من عابوا على عنترة سواد لونه إنما يشعرون بمركب نقص خبيث ، فقد بهرتهم شجاعته ، وهالهم فتاؤه ومضاؤه وسعة حيلته فى الحرب ، وحنكته فى ميادين الشرف والفخار ، فحاولوا أن يشعروه نقصاً ، وأن يقللوا من أهميته ، ولم يعرفو أنهم بذلك قد زادوه مضيًّا فى إدراك المجد ، وحفزوه على السير قُدمُاً فى اكتساب محامد جديدة ومناقب حميدة ، ثم هم لم يسلموا من لسانه الذرب الحاد ، ومن بيانه الساحر القاطع ، فقد دافع عن لونه أحر دفاع ، وأشاد بما هو عليه من سجايا نبيلة وخلائق فاضلة ، تقوّض مايتوهمونه من نقص ، بل مايريدون إلصاقه به من معائب ، فهو يدافع عن لونه بما يشبهه هذا اللون مما هو محبوب مرغوب فيه ، وبما له من فعال غر وأيد بيض وترفع عن الدنايا .

وقول الأعداء لايقصد به إلا الإثارة والإيذاء ، وهل نسى من يعيره من قومه بسواد لونه فعالهم ودكُن خصالهم وخبث طواياهم :

أما هو فإن يكن أسود ، فخصاله بيض نقية تشف عن طُهْر قلبه وصفاء سريرته .

كما أنه رفيع المكانة دائمًا ، عزيز الجانب أبدًا ، فلن يضيره سواد جلده شيئًا .

ثم ماذا يقول الأعداء ؟! لقد قصرت همهم عن همته ، فهم يؤذونه فى لونه واسم أمه ؛ وهو إمعانًا فى كيدهم سيمضى فى طريقه إلى نيل كل مجد ، وحيازة كل تشريف ، وليصنعن العجائب ، وليفرعن بلاغة الفصحاء ويخرسهم بفصاحته ولَسَنه .

وحقًّا لقد فعل من العجائب ما ليس عليه من مزيد ، وما جعل لاسمه دويًّا شغل الآذان .

وليس عنترة بدعًا فى لونه ، فهناك عشرات وعشرات غيره من أغربة العرب الذين جاءهم سواد اللون من قبل أمهاتهم ، ومنهم : خفاف بن ندبة ، وأبو عمير بن الحباب ، والسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبى معيط ، ولكنه مخضرم قد ولى فى الإسلام . ومن الإسلاميين : عبد الله بن خازم ، وعمير بن أبى عمير ، وهمام بن مطرف ، ومنتشر بن وهب ،

---

(١) فيليب حتى / تايخ العرب جـ ١ ص ١٢١ - ١٢٢ (مطول) .

ومطر بن أوفى ، وتأبط شرًّا ، والشنفرى[١] . بل إن من العبيد من شرفوا وزاد قدرهم على الأحرار ، كبلال رضى الله عنه مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم وكأخيه وقد تزوجا من بنى ليث الذين يعدون من أحسن الفرسان .

على أن عنترة إذا كان ضيق الصدر فى مبدأ أمره بمن يلاحيه فى سواد لونه ، فإنه قد اطمأن آخر الأمر إلى مكانته برغم آناف الحساد وكبت مقالة هؤلاء الخصوم ومَنْ أجدرُ من عنترة فى زمانه بأن يكون قوى الثقة بالنفس ، شاعرًا بعظمة شخصيته وعلو شأنه ومكانه ؟

كما أن من يشنؤه بسواد اللون ، وهو صفة ظاهرية لا تمت بحال إلى جوهر أخلاقه وخلائقه ، ولا تصل إلى أغوار سجاياه ومزاياه ، فإنه لأقوى منه حجة وأبلغ عملا فيما أتاه ويأتيه من صنوف المكارم وألوان المفاخر والمآثر .

وإن كانت أمه أمَةً فما يلقح الطعان ويبرز على الأقران كآبن الأمة ، وإنه لفاخر بها برغم سوادها ومغيظ أعداءه وشانئيه ، وإنه ليجد فى صفاتها ميزات تقدر لا عيوبًا تستكره .

ونختتم هذا الفصل من الكتاب بما أورده شوقى من شعر رقيق على لسان « عبلة » وهى تخاطب أباها مدافعة عن لون فارس أحلامها ، معتزة به ، مفاخرة بشجاعته وشهرته وكرمه ، وذلك فى مسرحيته الشعرية الرائعة « عنترة » :

أبى عَـنْـترة لَيسَ بـزنـجـىٍّ ولا عَـبْـد
ولَم يُجْلب مِنَ النُّوبِ ولَم يحْضر من السِّند
ولكن ميسم اللَّونِ كـمثْـلِ الأسـد الـوَرْد
فتًى كـالأسْمَر اللَّدنِ جَميـل الشَّعَر الجَعْـد
شُجـاعٌ ذَائـعُ الصِّيت جَـوادٌ وَاسعُ الـرِّفـد[٢]

المرأة فى حياته :

لم تخل حياة أى شاعر فذ من امرأة تصقل شماسها ، وتلين عنفها ، وتناغم عواطفها ، وتلهم الشاعر رقاق المعانى ، وتفجِّر فى نفسه مصادر الوحى ، وفى قلبه ينابيع الحب .

ولقد ذاق عنترة كما أسلفنا من الغرام أعنفه ، فقد أحب أعظم الحب وأشده ابنة عمه « عبلة » بنت مالك ، وكانت من أجمل نساء قومها ، وأبعدهم صيتًا فى اكتمال العقل ونضارة الصبا وشرف المحتد ، ويقال : إنه كان من أقسى ما يضايق هذا الحب صلف أبيها مالك ،

---

(١) الفيروز بادى / القاموس المحيط جـ ١ ص ١١٠ مادة (غرب) مطبعة دار المأمون .

(٢) أحمد شوقى / مسرحية عنترة ص ٦٥ .

وكبرياء أخيها عمرو ، وما كانا يقذفان به عنترة من النظر الشزر إذ يسمعان نبأ هذا الحب ، ويصيخان إلى أحاديث السمّار عنه ؛ وربما زاد من وَقْدة غيظهما وغلوهما فى التعالى على عنترة أنه أذاع بحبه ، وملأ الأسماع شعرًا فيه ، وأنه برغم لصوق نسبه بهما كانا لا يزالان ينظران إليه نظر المولى إلى العبد ، لاعتقادهما أنه لولا ظروف قاهرة لما كان لعنترة أن يشرف وينسّب ؛ على أن ما يعجب له الباحث ، هو أن أكثر المصادر العربية قد خرست عن ذكر عبلة إلا فى مجال تشبيب عنترة بها وحبه لها ، فلم تنوه عما إذا كان قد تزوج بها أم بقى حبه معلقًا وتزوجت سواه ، كما هو حال جميل بثينة ، وكُثير عزة ، وطبيعى أن قصة عنترة الشعبية قد أشارت إلى زواج عنترة بعبلة وتمتعه بوصالها ، وإن كان هذا القول لا يقدم أو يؤخر إن لم يدعمه سند قوى من سيرته .

وقد ذهب الأستاذ عمر الدسوقى فى كتابه « الفتوة عند العرب » إلى أن عنترة لم يتزوج عبلة ، بل تبتل فى محراب حبها ، وأن أباها وأخاها منعاه زواجها وأبيا عليه مصاهرتهما ، وأنها زُوِّجت أحد أشراف قومها ، وزفّت إليه على الرغم من عنترة[1] . بيد أن الأستاذ الدسوقى لم يذكر – صراحة – المصدر الذى استقى منه ذلك لكى يرجع إليه القارئ ، ويشايع الأستاذ الباحث فى ترجيحه هذا الرأى إذا كان وليد استقراء جدير بالاعتبار أو يخالفه فيه . وربما كان ذهاب الأستاذ الدسوقى إلى أن عنترة قد خذل فى نيله عبلة ، إنما هو قياس على عادة العرب من منعها بناتها أن يزففن إلى من يشبب بهن قبل الزواج ، وأن ما عصف برأس أبيها وأخيها من ريح الخيلاء لما أصاب كرامتهما كان السبب فى رفضهما خطبة عنترة وإيثارهما سواه بعبلة برغم هواهما المتبادل .

على أننى أميل إلى الرأى القائل بأن عنترة قد تزوج عبلة لعوامل وأسباب منها : أنه قد استلحق بنسب أبيه فزالت عنه هجنة النسب ، وأصبح ابن عم لعبلة بآصرة القرابة الوثيقة ، ثم إنه كان أشهر فرسان القبيلة ، بل فرسان العرب وفتوته وفروسيته مما لا يغفله من حسابه من يريد زواج عبلة ، إذ أنه سيتعرض لانتقام عنترة وثأره لكرامته وحبه ؛ ثم إن ذلك من الأسباب التى ترغب فى مصاهرته . فمهما يكن من تعالى والد عبلة وأخيها فعظم شأن عنترة وبلوغه مبلغ الذروة فى قومه وبين أنجاد العرب وأجوادهم ، كل ذلك يحفزهما إلى تزويجه بعبلة .

وثمة من الأسباب شعر عنترة ، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من ذكر عبلة والتشبيب بمحاسنها ، وتذكرها حتى فى مواقف العراك والاشتباك ، وهذا الغزل الشائق الموصول فى كل حين مما تأباه عليه شيمته العربية ، وبداوته الأبية لو كانت عبلة قد زوّجت لغيره وألحقت بكنف سواه ، فإن من اللازب والواجب عليه حينئذ أن يتناسى حبه ما أمكنه التناسى ، وأن

---

(١) عمر الدسوقى / الفتوة عند العرب ص ٤٣٤ و ٤٣٧ .

يقلل إن لم يكف عن التغزل بها فى أشعاره حرصًا على كرامة رجلها وعلى شرفها ، وهى ابنة عمه لصقًا ، وما يجرح شعورها وشعور عمه أبيها مما لا يتواءم مع طبيعته وسجاياه فى رفع الغبن عن الغير ، وإنصاف المظلوم من الجور ، فكيف يظلم إذن ذوى قرابته الأدنين :

وظُلْم ذَوى القُرْبى أشدّ مَضاضةً عَلى المرْءِ مِنْ وقعِ الحُسام المهنَّد

وحاشا أخلاق عنترة أن تتدنَّى إلى مثل هذا الإسفاف .

وإذا كان عنترة صاحب غزو وحرب وكاسب غنائم ، فإنه كثيرًا ما كان يصيب فى غزواته سبايا جميلات من حرائر العرب ، والسبية دائمًا تعد فى الإماء المسترقات . ولكن عنترة كان إذا استبى إحدى الحرائر دفع إليها مهرها وتزوجها وأبى أن يسترقها كما يفعل غيره ، وتلك من الميزات التى سما بها على غيره[1] .

ومن أجدر من عنترة بذلك وهو الذى ذاق الرّق وعجرفة السيادة ، وإن كانت عبلة بنت مالك هى دائمًا الأثيرة عنده المفضلة لديه .

كما أنه لم يغتصب أنثى قسرًا وإرغامًا بل إنه ليتزوج المرأة برضاء وليها :

ما اسْتمتُ أُنثَى نَفْسها فى مَوْطنٍ حتَّى أوفى مَهرها مَوْلاها

وهو ذو حفاظ وصيانة لأعراض غيره ، فإنه ليصل نساء قبيلته بهباته وأياديه صلة أرحام ما دامت بعولتهن معهن ، ولكنه لا يزورهن فى غيبة محارمهن ، ويربأ بنفسه عن مواطن الشبهات ومظان الرّيب ، لأنه حافظ للجوار والحرمات :

أغْشَى فَتاةَ الحىِّ عِنْد حَليلهَا وإذَا غَزا فى الجَيْش لا أغْشَاها
وأغضُّ طَرفى إنْ بَدَت لى جَارتى حتَّى يُوارِى جَارتى مَأْواها[2]

إن عنترة ليكرّم المرأة تكريمًا ، ويعرف لها منزلتها ، فلا يهدر كرامتها ولا يدوس شرفها ويحطم إنسانيتها .

وأما حليلته المفضلة عنده دائمًا فهى عبلة ، لا يعدل بها سواها ، ولا ترقى إلى منزلتها لديه امرأة أخرى ، فقد أُشْرب حبها قلبه فلا يزاحمها فيه غيرها .

وعبلة تعرف لنفسها عنده هذه المكانة والمنزلة ، فهى قريرة العين بمنزلتها ، فخور بمكانها من قلبه ، لأنه طوع يديها إما دعت للعظائم وملاذها إن مسها مكروه ، وأنه متجنب

---

(١) عمر الدسوقى / الفتوة عند العرب ص ٤٤٣ .

وراجع ص ٥ و ٦ و ٧ من كتاب « الجوارى » العدد ٥٩ من سلسلة « اقرأ » ففيها تحليل لمكانة « المرأة فى نفس العربى » .

(٢) « الديوان » ص ١٨٥ .

ما يسوؤها حريص على عدم المساس بكرامتها وإحساسها :

ولئنْ سَألتُ بذاك عَبلةَ خبرت ... أَلا أُريد مِنَ النِّساء سِواها
وأجيبها إمَّا دَعَت لِعَظيمة ... وأغِيثها وأعفّ عمَّا ساها[1]

وذلك هو فصل الخطاب فى عمق مودته ، وحرارة عاطفته ، وتوهج حبه وغرامه !

نهاية عنترة

إن القاصّ الشعبى الذى يسرد قصة عنترة عليه أن يحسب ألف حساب لليلة التى يصادف أن يقص فيها نهاية عنترة ، وكم يود من صميم نفسه لو عبر هذا الفصل الرهيب الذى يشعر وهو يرويه بالغصة فى حلقه ، ويرى الدموع تنهمر غزارًا من عيون المستمعين ، ويستمع إلى التنهدات والزمجرات وقذائف الشتم تنهال على من رمى عنترة فأصماه .

لقد انتهت حياة عنترة الحافلة بعد أن بلغ من العمر التسعين عامًا تقريبًا ، فقد كانت منحصرة بين سنتى ٥٢٥ و٦١٥ ميلادية[2] ، وذكر صاحب الأعلام أن وفاته كانت فى عام ٦٠٠ الميلادى وهو ما يوازى العام الثانى والعشرين قبل الهجرة . ومهما تكن الروايات الواردة فى تاريخ وفاته ، فلعله قد متع بعمر طويل يستدل على ذلك بالحروب والغزوات التى غزاها ، وساهم فى وقائعها كما يستند إليه بما أثر من شعره ومنه قوله :

فَما أَوْهَى مِراس الحَرْبِ رُكْنى ... ولكن ما تَقادَم مِن زَمانى

وقد ذكر صاحب الأغانى أن عنترة أغار على بنى نبهان من طيئ فطرد لهم طريدة وهو شيخ هِمٌّ كبير ، فجعل يرتجز وهو يطردها ويقول :

حظُّ بَنى نَبْهان مِنها الأثْلب ... كأنَّما آثارها لا تُحْجَب
آثار ظَلمان بقاعٍ مُجْدب[3]

وكان وَزر[4] بن جابر النبهانى فى فتوة فرماه وقال : خذها وأنا ابن سلمى ، فقطع مطاه –

---

(١) ساها أى ساءها .

(٢) فيليب حتى / تاريخ العرب أحمد الزيات / تاريخ الأدب العربى .

(٣) محمد بن حبيب البغدادى ، تحقيق عبد السلام هارون / أسماء المغتالين من الأشراف فى الجاهلية والإسلام ، وأسماء من قُتل من الشعراء ، من مجموعة نوادر المخطوطات ص ٢١٠ ط أولى – لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٣٧٤ هـ ١٩٥٤ م . والأثلب : التراب والحجارة ، كناية عن الخيبة .

(٤) راجع مخطوط « مختصر جمهرة النسب » ص ١٢٩ – نسخة الإدارة الثقافية بالجامعة العربية (معهد المخطوطات) .

ظهره - ولكن عنترة تحامل بالرمية حتى أتى أهله فقال وهو مجروح :

وإنَّ ٱبن سَلْمى عندهُ فاعْلَمُوا دَمى ... وهَيْهات لا يُرجَى ابنُ سَلمى ولا دَمى
إذا مـا تَمشَّى بـينَ أجْبـالِ طَـيئ ... مَكـان الثُّـريّـا لَيسَ بـالمتـهضِّم
رَمـانى ولَم يـدهش بـأزْرق لهْـذَم ... عَشِيـة حـلُّوا بَـيْن نعـفٍ ومخْـرَم

قال ابن الكلبى : وكان الذى قتله يلقب بالأسد الرهيص .

وأمَّا أبو عمرو الشيبانى ، فذكر أنه غزا طيئًا مع قومه فانهزمت عبس ، فخر عن فرسه ولم يقدر من الكبر أن يعود فيركب ، فدخل دغلا وأبصره طليعة طيئ فنزل إليه وهاب أن يأخذه أسيرًا فرماه وقتله .

وذكر أبو عبيدة أنه كان قد أسنّ واحتاج وعجز لكبر سنه عن الغارات ، وكان له على رجل من غطفان بكر ، فخرج يتقاضاه إياه ، فهاجت عليه ريح من صيف وهو بين شرج وناظرة - ماءان لعبس - فقتلته ووجد بينهما ميتًا .

وروايات أكثر المصادر العربية لا تخرج عما رواه صاحب الأغانى ، وربما كان ذلك لأن أكثرها مستقى من الأغانى[1] .

على أن الرواية المتداولة والتى هى أقرب إلى المرجح من الروايات ، أن عنترة قد مات مقتولا إثر رمية السهم الذى فوق إليه ممن يلقب بالأسد الرهيص ، ونظرًا لكبر سنه وكلال بصره فإنه لم يستطع أن يتحامى الرمية من السهم المراش الغادر الذى سدد إلى ظهره[2] .

والأدب الرفيع لا يستطيع أن يغفل سحر الخيال البارع فى الميتة التى اختارها القصاص لعنترة ختامًا لحياته ، وكان « لامرتين » الشاعر الفرنسى الكبير معجبًا أشد الإعجاب بالقدرة الفنية فى هذا الختام ، الذى يتلخص فى أن عنترة البطل حينما أصيب بالسهم المسموم الذى ريّشه إليه الأسد الرهيص ، أحسّ أنه ميت لا محالة ، وحينئذ اتخذ خطة الليث المناضل حتى بعد مماته فقد ظل ممتطيًا صهوة جواده مرتكزًا على رمحه السمهرى ، ثم أمر الجيش بأن يتراجع القهقرى وينجو من بأس الأعداء ، وظل فى وقفته تلك حاميًا ظهر الجيش والعدو يبصر الجيش الهارب ، ولكنه لا يستطيع اللحاق به لاستبسال قائده البطل فى الذياد عنه ، وقوفه دونه ، وهيبة الفارس المحارب حتى نجا الجيش وأسلم عنترة الروح ، ولكنه بقى فى مكانه متكئًا على الرمح وظل جواده ثابتًا ، فلما طال وقوفه وجاوز الحد المألوف ، ارتاب العدو فى الأمر وشك فى

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى / الأغانى ح ٨ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ،
أبو محمد مسلم بن قتيبة / ح ١ ص ١٧٣ ، الأب لويس شيخو / ح ١ ص ٧٩٨ ، خير الدين الزركلى ح ٢ ص ٧٤٤ ،
عبد القادر بن عمر البغدادى / ح ١ ص ٦٢ ، أحمد حسن الزيات / تاريخ الأدب العربى ص ٤٨ طبعة سادسة .
(٢) الآمدى / المؤلف والمختلف ، ص ٩٩ طبعة القدسى .

مصير البطل ، فأطلق إلى الجواد حجرًا لتهيجه ، وحين بصر بها الجواد شب براكبه فخر الفارس على الأرض بعد أن ثأر لنفسه بإضاعته فرصة النصر على عدوه وحماية قومه من براثنه .

ولكن ما يغلب على الظن أن القاص إنما استوحى هذا الختام الماهر من حكاية موت النبى سليمان بن داود عليهما السلام أمام عماله من المردة المسخرين من الجن ، والذى قصته الآية الكريمة فى أبلغ وصف معجز : ﴿ فلمَّا قَضَيْنا عَليهِ الموْتَ ما دَلهم عَلَى مَوتِه إلاَّ دابَّةُ الأرضِ تَأْكُلُ مِنْسَأتَهُ فلمَّا خَرّ تَبيَّنتِ الجِنُّ أنْ لَوْ كَانُوا يعْلَمُون الغَيْبَ مَا لَبثُوا فى العَذَابِ المهِينِ ﴾[1] .

وهكذا انتهت حياة عنترة .

انتهت حياة أشهر فارس فى الجاهلية ، وأحذق من ضرب بالسيف ، وطعن بالرمح ، وقاد الكتائب فيها ، وخاض غمار الحروب منصورًا مظفرًا .

انتهت حياة عنترة بعد أن ترك فى سمع الدنيا دويًّا خالدًا ، وبنى لقبيلته مجدًا سيبقى ماكَرَّ الجديدان ، وما تعاقب المَلَوان .

والبطل الذى كان اسمه يرعب الأقيال ، وذكره يفزع القساورة الأنجاد ، أوى هادئًا إلى شَقٍّ من الأرض صار بعده لحدًا مرارًا .

---

(١) أحمد حسن الزيات / أصول الأدب ص ٥٠ م الرسالة والآية من سورة سبأ رقم ١٤ .